مارغوريت دوراس*

Marguerite Duras

من القيد إلى الإطلاق، الأنثى تكتب ذاتها

جهاد شارف

باحث من الجزائر

لقد اعتنت صاحبة كتاب *"العشيق"* بتشكيل أسطورتها الشخصية، المتجلية في كتاباتها ونمط عيشها، ومن الصعب أن نفصل بين الحقيقة والخيال، وقد يبدو ذلك جدلا عقيما كلما اطلعنا أكثر على أعمالها، إذ التجربة الحياتية هي الوحي الأساس الذي تشرع منه لبناء عالمها السردي الفاتن، والمفتون بما حفل به وجودها الموغل في الخيال. مر على دوراس ستة عشرة سنة، شهدت صدور العديد من المؤلفات المستوحاة من كتاباتها، الذاكرة هي المحرك لقلم دوراس، فكل الإنفعالات والأفكار هي خبيئة الذكريات، تعود إليها في كل مرة ممكنة، لتنتقل بها من حالة السكون والهدوء، إلى قيد الكتابة والتدوين، ممزوجة بخاطر الحاضر.

كل الولادات الأدبية عند دوراس تحمل أسرارا معقدة بطلاسم التذكر، *"سد في مواجهة المحيط الهادي"*، *"العشيق"*، *"الألم"*، والعملية السردية ليست محض تذكر عند دوراس، بل تتخللها منعرجات طويلة، تجول خلالها بفكرها ورؤاها، فتفصح عن فلسفة تبحث بلا جدوى عن لحظة الإكتمال، أو تطابق النظري بالعملي، داخل نسيج سردي يخشى المثالية بحثا عن الإنسان بما هو كذلك. دقة الكلمات

---

* مارغريت دوراس (بالفرنسية Marguerite Duras)(مفكرة وشاعرة وكاتبة وروائية فرنسية، ولدت في4 أبريل 19 14في سايغون، وتوفيت في 11 أبريل 1996 في باريس. أشتهرت في فرنسا والعالم الفرنكفوني بالتنوع الأدبي والمعاصرة كما كانت كاتبة للقصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام وهي تعتبر من أهم الأدباء الفرنسيين في النصف الثاني من القرن العشرين.

تشكل هم كبير للكتابة، إذ هي منشغلة بالألفاظ التي من شأنها أن تسقط قناع الحياء المفرط، عن طريق ما تحدثه حقيقة الإنفعال La vérité de l'émotion، وهي بطبيعتها متناقضة وذاتية بل تبدو مقرفة ووحشية، ويظهر ذلك في شخصية الأنثى التي عانت من كل الآلام، فتعيد بفعل الذاكرة إسقاط التعذيب على شخصية العميل ليختل السرد، وبالإمكان أن نرفض بالمرة نظرتها للأشياء، لكنها تجبرنا على الإعتراف بالحاجة إلى الشعور المشترك.

لقد جمع دانيال لورين[1] جملة من الشخصيات الأدبية والفكرية، في كتابه "المستحيل"، مثل إدغار موران، روبير لالاند... وخصص جزء كاملا لمارغوريت دورا، عرض خلاله الرسائل التي كانت تتبادلها مع مثقفي جيلها، وكان أغلبهم يلقبونها بالشخصية الملحمية Personnalité épistolaire نظرا لتأثيرها الواضح على الساحة الأدبية الفرنسية والأجنبية، وقد تجاوزت بكتاباتها تخوم الأدب لتلج إلى الفنون التشكيلية والدرامية، فكانت للبعض غاية في حد ذاتها، وللبعض الآخر سبيلا لفهم الحياة وأنيسا ممتعا يملأ الفراغ الوجودي، لأن المشترك أكثر من المفرد، **وهي الفلسفة الأكثر حضورا في أفكار دورا، *فالألم* يتحول/ينتقل من حالة "الإستفراد" إلى حالة "الإستشراك"، ما جعل أثرها أقوى في بناء الخيال الجماعي، لدى الأجيال بعدها.**

القارئ لأعمال دورا يلاحظ عودة نفس الشخصيات في أغلب الأعمال، كما يتعرف بسرعة إلى أسلوبها المتميز بالدقة والجفاف، في صيغ قصيرة ومختصرة تتراوح بين الوضوح والغموض اللامتناهيين، وقل ما نجد مراسليها من المثقفين من ينتقد كتاباتها، فهي كما يقول جان فاليي[2]: "تمارس عليهم وبشكل عفوي، نوع من السلطة الجمالية" بحيث لا يبرحوا حالة الإنبهار إلا لانبهار آخر، وإعجاب جديد، حتى دانيال لورين التي حاورت دورا، ونشرت الحوار في مقالة بعنوان *"برودة أعصاب دورا"*[3]، وأقرت خلال التقديم تأثرها واعجابها القديم والعميق

---

1 Marguerite Duras. Paris: Gallimard, 1998. 627 p.

2 OEuvres complètes, 1. Textes réunis par Gilles Philippe. Paris: Gallimard, 2011. LXI-1608 p. 572

3 Romans, Cinéma, Théâtre, un parcours. 1943-1993. Paris: Gallimard, 1997.

* دارس ماستر ترجمة، ودراسات عربية بقسم اللغات والثقافات الأجنبية، بجامعة ليون II، فرنسا

بها، فقد كانت حسب لورين "الأكثر قدرة في الحديث عن المتناقض في الرغبة الأنثوية"، وقد تناولت دورا إشكالية رغبة الأنثى في رواية "اختطاف لول 5"، حيث استعانت بالشواهد من الواقع، ومزجت السرد الخيالي بالحوادث الواقعية، فصار البين لحظة الغموض الحقيقية للقارئ، وهو يحاول أن يرسم حدودا تفصل الخيالي عن الواقعي.

1 - الكتابة المستحيلة عند دورا:

عمل كتاب السير والتراجم الذين اهتموا بدورا على تفكيك الحقيقة الخيالية، فبحثوا عن دلالات الأب المخفي/المستور في كتاباتها بالحضور الدائم للأم، كما حاولوا تحديد المكان الذي ترعرعت فيه دورا، وعلاقته بالمكان في النص، أو النقاط المشتركة بين طفولة والديها وطفولتها، فكانت دائما الأجزاء الثلاثة الأولى من السيرة[1]، مرتبطة بطفولتها ومراحل التعليم وكل الأحداث التاريخية التي عاصرتها، وسريعا ما تتحول السيرة إلى بحث تاريخي ممل، يشوش على القارئ، ويقدم له دورا في صورة خيالية بعيدة عن الواقع، لذلك، حاول جان فاليي أن يدون سيرة دورا ملتزما بتحولاتها في الحياة، لكنه وجد نفسه أمام خضم من المعطيات التي تجر بعضها بعضا، من المراهقة فالتعليم، ثم مرحلة النضال وبداية الكتابة.

من هنا تترسخ العلاقة بين وسعة الخيال والماضي القابع في الذاكرة، وكأنه حامل تكاد تلقي بحملها على القارئ، فتصبح التواريخ والهويات محض ملامح عابرة، تحاول عبثا الإستقرار زمانا ومكانا، وأغلب من ترجم لدورا وقع في شباك التلاحم بين الواقع والخيال[2]/الزماني والمكاني/الوهم والحقيقة/النص والذاكرة... فليس من السهل إذا القبض على الحقيقة الأدبية، فيظل خيال الكاتب يتجاوز الأحداث التي يحدثها الواقع، ويبقى السؤال مطروحا هل من الممكن أن نقرن ونفسر الواقع بالخيال؟ وجرت العادة أن يستشهد النقاد برواية الحرب والسلام لتوستوي، والتي كتبها بعد انقضاء سنوات طويلة من الحرب الروسية، لكن يبقى التغير المستمر للواقع، واستحالة الإمساك باللحظة، هي الإشكالية الأكثر غموضا،

1 Les Impudents [premier roman, Plon, 1943]. Paris: Gallimard, 1992. p. 245.
2 La Vie tranquille. Paris: Gallimard, 1944. p. 223.

التي تواجه الأدب وكذلك المخيلة الأدبية، فيصبح المضمون الأدبي في صورته الخيالية والواقعية محل دراسة تخضع لأدوات الراهن، ولتحول المنظور الأدبي.

ليس ثمة عوالم غريبة في خيال دورا ولا هويات وهمية ولا كائنات مخيفة، وليس هناك صورة المجتمع كما ينبغي أن يكون بأخلاقه وعاداته، فلا سبيل للوقوع في مطبة البحث عن المجتمع الوهمي والمجتمع

الواقعي، فنحن إزاء تعامل مع العابر والخيالي، تجربة الكتابة، أو الكتابة من أجل الكتابة، تعد من التجارب الإنسانية المستحيلة، بل الكونية، التي تتجاوز كل تفسير وتأويل وتحليل. لذلك كل قراءة لدورا هي بمثابة ابداع أخر لكتاباتها.

وليس المبتغى أن نجعل من هذا البحث قراءة لأعمال دوراس، ينحو نحو القراءات الأدبية النقدية، المشبعة بالمفاهيم والألفاظ المعقدة والعميقة، والمترجمة في الكثير من الأحيان بطريقة يصعب فهمها. ولم نعمد إلى ترجمة كتاباتها إلا ما رأيناه يقتضي النقل، على سبيل الإيضاح وذلك لسبب بسيط. لقد كان هدفنا في هذه الدراسة الأدبية الفكرية، أن نقدم لكم تجربة الكتابة لامرأة زاوجت بين عمق النظر ودقة العبارة، حتى ألقت بظلالها على الأدب الفرنسي بشكل عام والأدب النسوي بشكل خاص، وهي "مارغريت دوراس". هنا مهبط الإستفهام عن الكتابة والتاريخ والمرأة، هذا الكائن المنسي في الوطن العربي، والمبهوت منذ زمن طويل. كتاب دوراس الذي يحمل عنوان "كتابة"، هو عبارة عن ثلاثة أجزاء، ثلاثة نصوص، يمكن أن نلخصها فيما يلي: كتابة، موت الذبابة فالطيار الإنجليزي، وروما. ثلاثة عناوين، ولكنها تعبر كلها عن تجربة واحدة. تجربة حركة الحياة في مقابل الموت، بل آثار الموت المبكر، في مقابل الحياة الأبدية.

وتتساءل الكاتبة عن الموت؟ فترى بأن كل وجود ينطلق من التساؤل عن الأنا. وبأن كل أنا، يحاول ويسعى إلى تخليد ذاته عبر تجاوزه لوحدة العدم. وبأن الحياة منبعها العدم المحض، هي إعلاء لتجربة الكتابة الوجودية في مقابل الموت المقدر، إذا صح التعبير.

تفتح دورا كتابها، الذي يحمل عنوان "كتابة"، فتحتفي بتجربة الكتابة باعتبارها تجربة ذاتية وشخصية. وتنطلق التتجربة بشرائها لبيت واقع ب"نوفل-القصر"، بضاحية إفلين، لقد كانت تتمنى أن تحصل على هذا البيت لتمارس فيه

الكتابة، وطقوس الكتابة إلى الأبد. لقد كانت تنتظر بفارغ الصبر لحظة دخولها لهذا البيت، المخصص للكتابة فقط، الذي كان حاضرا في خيالها وسطورها من قبل أن تكتب، فهي صانعة وجود كتابي، وعالم من الأشياء، وكذلك كان مصير الكتابة القادمة. تحصلت على البيت، وبالرغم من كل ما فيه، من بساتين وورود، تخلت عن كل هذا، وتزوجت بخيال الوحدة. ومن هنا، من هذه الوحدة الوجودية العتيقة، هذه التي تقول عنها الكاتبة: "إن وحدة الكتابة، هي عزلة، بدونها، لا مجال للكاتبة أن تدخل إلى حلبة الوجود. وهذه الوحدة، بعبارة أخرى، هي نوعا ما هروب وحرب وجودية، في مقابل ما نواجه من وحشة وجودية. فهي إذن هجمة الموت، كلما دخلت إلى الكتابة". ثم إن "مارغريت دوراس" في هذا العنوان الأول تلخص تجربتها الحياتية التي تعتبرها وجودية بامتياز، حياة كتابية في جملة من الإنطباعات، قد نلخصها في: البيت، الذكريات، السينما، الإنعزال... بل كل تلك الوحشية، المتجذرة في تاريخ الإنسان الهمجي. دوراس لا تطيق العيش خارج عزلة الكتابة، كآخر ما تبقى، لمن جرب هذه المغامرة الكتابية المخيفة. في بيتها الذي دونت فيه رواية *"نائب القنصل"* تتلون وتتعدد تجربة الكاتبة وتتنوع، لتصبح شيئا آخر، كخطوة أساسية لعملية الكتابة. وفي هذا البيت المتعدد الصور، تستوقفنا صورة يمكن عدها من أجمل ما يكون، صورة[1] ذبابة ميتة بعد أن تحطمت على زجاج النافذة واستغرقت ربع ساعة تحتضر وتموت. وتألمت الكاتبة لهذه الصورة، بكت لموت الحشرة وهي تستحضر قيمتها الروحية، كتجربة وجودية لكائن حشري، وتأثرت كثيرا لمصيرها. قد تكون مهملة كموت تلك الذبابة. وهنا تجعل من هذا المون المقدور لهذا الكائن الحيواني نصا يخلد هذا موت هذه الذبابة الراحلة: "لقد أطلت النظر، شاهدت كيف صار هذا الموت يحيطها من كل جانب. وحاولت أن أعرف كيف يظهر الموت فجأة من الخارج، من قوة الجدران أو من الغرفة؟ ومن أي اتجاه قدم، أمن الأرض، من السماء، من هذه الغابات القريبة، أو من عدم لم نسميه بعد؟ قد شعرت بها قريبة مني، أنا التي تحاول معرفة طرقات هذه الذبابة إلى الأبدية."

---

1 Un barrage contre le Pacifique. Paris: Gallimard

لقد سعت مارغريت، في لوحة[1] الموت الأولى، أن تعيد اعتبار الموت بالنسبة لتجربة حشرة. أو لنسميها ب"ذبابة". ذبابة... بل ذباب، نحن معه في حرب شرسة منذ البداية. ووصفت لنا والدموع تغمرها، موت هذه الذبابة الملعونة من البشرية جمعاء. هذه التي قد كان في مقدور كل واحد منا، أن يدوسها كذبابة، لكن هذا الذي حصل لمارغريت دورا أن تصورها لنا، وكأنها روح معذبة، من قبل أن تكون أي كائن طبيعي. وهكذا ننتقل إلى الطيار الذي تعرفنا بهويته. طيار انجليزي سقط ميتا تحت وقع البطاريات النازية، في آخر يوم من الحرب العالمية الثانية. طيار اصطدم مباشرة بالموت، في آخر لحظات نهاية الهزيمة الكبرى. ولكن ما يشغل بال الكاتبة هو سنه المبكر. توفي وعمره عشرون سنة. ولكن السر المنفلت والعميق لا يكمن في قدر موت طيار انجليزي شاب، بل في ما يواجه قدر التجربة الإنسانية، والمراد بذلك الموت. كان من الممكن للطيار الذي مات أن لا يموت. قد كان بإمكانه أن يصبح أسطورة ضحمة أو بطلا عملاقا لا شبيه له. ولكن الأحداث المتعافبة جعلت الموت لأسباب بسيطة جدا بل تافهة في أغلب الأحيان، ومن جديد نعود إلى تجربة الكتابة لدى الكاتبة، بل رأيتها الشخصية والذاتية، لهذه التجربة الزجزدية الحرة. فتقول في هذا السياق في كتابها: "إن موت أي كان، هو موت تام وشامل. وأي كان، هو العالم بأسره. وهذا ال"أي كان" قد يتخذ شكل طفولة عنيفة، تشق مجراها بلا توالي. إننا نعلم بوجود كل هذه الأشياء في البوادي. كل ما نقله لنا الفلاحون من أحداث... أحداث مروعة، حدث مقتل طفل في سن العشرين، قتل في حرب كان يحسبها لعبة.."

الكتابة هي قلم الحياة، هذه هي الفكرة التي حملت همها مارغريت دورا في كل أعمالها الأدبية، هي كاتبة جعلت من مفهوم «الكتابة الهيولية»[2] طقسا يومياً وممارسة لا تنفك عنها أبدا. كانت تعتبر الكتابة واجباً يومياً بل حاجة وجودية كما تقول: (لا يوجد واجب بالنسبة إلى الكاتب، هناك الكتابة فقط، التي تدفع برجل أو بامرأة، إلى اتخاذ موقف باتجاه الواقع) إن الكاتب في تصور مارغريت دورا لا يختار أن يكون كاتباً لأن هذا يحدث صدفة.. ثم ينتهي الأمر صدفة كذلك.

1 Le Marin de Gibraltar. Paris: Gallimard

2 Les Petits chevaux de Tarquinia. Paris: Gallimard, 1953.

لكن هل الأدب من شأنه أن يساعد على الحياة؟ جواب دورا هو النفي، لأن الكتابة، بقدر ماهي طريقة حياة هي أيضاً طريقة موت استثنائية على حد تعبيرها. لقد كتبت دورا حياتها، وجعلت من حياتها الشخصية والعائلية موضوعاً للكتابة الحية، يتجدد باستمرار، إن الدافع لديها إلى الكتابة هو هذه التفاصيل التي ستظل دورا ترويها بدقة وحنكة، وبكثير من الشغف، من دون أن تكف عن الاعتراف بأنها لا تدري حقيقتها، تقول (ماهي حقيقتي؟ إن كنت تعرفها فأخبرني بها؟)[1].

تعتقد دوراس أنها لو لم تكتب لصارت مدمنة كحول، ويعتقد أهل النقد الأدبي أن الصمت المتفجر هو ما يميز كتابة دوراس. فبداية من روايتها الأولى "*السفهاء*" الصادرة عام 1942 وصولا إلى كتابها الأخير الصادر عام 1995 بعنوان" *هذا كل شيء*، " كان على دورا أن تنظم ماضيها وتحسم الأمر في كل القضايا المرتبطة به وبحياتها: «إن المكتوب يهب مثل الريح العارية ويمر كما لم يمر شيء آخر في الحياة». منذ العام 1980 ومع روايتها صيف 1980 سيزداد هذا الإصرار على محاولة القبض على اللحظة في الحياة التي تمر من دون أن تترك أثراً، الحياة حين تمضي كما تمضي. من هنا تصبح دورا كاتبة سيناريو ومسرحية أو مخرجة تولي أهمية خاصة للبنية الحوارية في كل رواياتها، الحوار باعتباره إيطارا للكتابة، توظفه كأداة لرسم الحدود بين مختلف أشكال الكتابة الأخرى، فنضيع داخل النص بين رواية ومسرحية وشريط سينمائي؟

في سنة 1984 وبالتحديد قي الثامن والعشرين من أيلول، نشرت روايتها "*العشيق*" التي بيع منها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة وترجمت إلى ثلاثين لغة، حيث ينفتح نصها على عوالم سردية تمتزج فيها الخيالي بالسيرة الذاتية، والذاكرة بالعواطف، والشعور بالغرائز، والمحبة بالبغض والسكر بالموت والكذب بالعنف. أما رواية «*عشيق الصين الشمالية*» الصادرة في العام 1991، فهي رواية النفس الطفولي المخفي بين طيات تجربة حياة متلونة، إنها رواية البكاء الحاد، كما يقول محمد عزيز الحصيني مترجم هذه الرواية إلى العربية، في مقدمته للبكاء كرغبة في الخلاص وفي التعبير عن الألم، ألم الحب والتيه واستحالة تحقيق الحلم[2]: (بالنسبة إليه إن قصتهما

---

1 Hiroshima mon amour, Paris, Gallimard, 1971. 160 p

2 L'Homme assis dans le couloir, Paris: Minuit, 1980. 35 p.

ظلت كما كانت من قبل، وإنه مازال يحبها، وإنه لن يستطيع أن يكف عن حبها طيلة حياته، وسيحبها حتى الموت، وصله صوت بكائها عبر الهاتف، ثم ومن بعيد جداً من غرفتها ربما لم تقطع الخط لا يزال يسمع صوت بكائها، ثم حاول أن يواصل الاستماع، لكنها لم تكن هناك، لقد أصبحت لا مرئية، لا يمكن الوصول إليها، ثم بكى، بكى كثيراً من أعماقه).

في رواية *عشيق الصين الشمالية* – والكلام لمترجم الرواية– تستعيد دوراس إحدى الثيمات التي لم تستطع الانفلات أو الإنفكاك منها، هي يتيمة الخوف العميق، الذي كان يسكن طفولتها الخوف من شقيقها، الخوف من جنون الأم الهستيريا التي سعت من دون أن تعي ذلك إلى قتل أبنائها، كما تستعيد حقيقتها وطبيعة العلاقة بهذه الأم، التي هي مزيج من الحب والحق وتكشف عن عواطفها تجاه العشيق الصيني الذي أحبته حباً مستحيلاً ولا متناهيا، «في الحب، لا توجد إجازة الحب يجب أن نعيشه بالكامل، بضجره وتفاصيله، ولا إجازة ممكنة معه»[1]. قد تمثل الكتابة الدوراسية في نهاية الأمر نصاً واحداً تحركه الأصوات التي اتخذ مواضع مختلفة في البناء الروائي والفيلم مروراً بالحوار المسرحي، كما تمثل الرغبة والشغف اللحمة القوية لهذه الكتابة، أما الحب المستحيل، ومصير الأمر التراجيدي والبحث المهووس عن المال، فتمثل الوسواس الذي يحقق للنص بعده الأسطوري.

ولا بد أن نعود ونتتبع سيرتها فهي مارغريت دونااديو ولدت في عام 1914 بالهند الصينية (فيتنام حالياً) توفي والدها الذي كان استاذ رياضيات خلال رخصة مرضية بفرنسا وعمرها لم يتجاوز الرابعة، بعد ذلك عانت أمها التي كانت معلمة ثم مديرة مدرسة، من أجل إعالة ورعاية، أبنائها الثلاثة، تقضي دورا معظم طفولتها في الهند الصينية، حيث ستجمعها علاقة حب عاصفة برجل صيني ثري ستسميه في معظم أعمالها بالسيد «جو» و«ليو» في سن السابعة عشرة تستقر في فرنسا وتدرس القانون والعلوم السياسية بالسوربون لتحصل عام 1935 على شهادتها الجامعية، وبعدها تعمل سكرتيرة وتلتحق بالمقاومة الفرنسية كعضو نشيط بخلية «روشيليو»[2] التي كان يرأسها فرانسوا ميتران الرئيس الفرنسي الراحل. وفي سنة

1 L'Eté 80. Paris: Minuit, 1980. 102 p

2 L'Amant de la Chine du Nord [roman]. Paris: Gallimard, 1991. 237 p.

1939 تتزوج روبير انطيلم وتبدأ حياتها الروائية عبر تتابع إصدار أعمال روائية أثبتت حضورها على الساحة الفرنسية وفي عام 1984 تحصل على جائزة الفونكور الفرنسية في شهر تشرين أول من العام 1988، ترقد دوراس بالمستشفى بعد عملية جراحية وتدخل في غيبوبة (كوما) طويلة الأمد لم تخرج منها إلا في تموز من عام 1989 بعد أن اعتقد الأطباء أنها ماتت، لكن دوراس لم تمت بسهولة، كما علقت ساخرة ستستيقظ وتلتقي بالمخرج جان - جاك آنو لتنتقل رواية «*العشيق*» إلى السينما. فتلتها برواية *عشيق الصين الشمالية*. ورحلت سنة 1996 في باريس بعد أن أسرت لصديقها يان أندريا: (أنا لم أعد شيئاً، لقد أصبحت مخيفة تماماً، تعال بسرعة لم يعد لدي ثغر، لم يعد لدي وجه، يان حبيبي في الليل).

قبل اعوام قليلة احتفلت فرنسا بمرور عشر سنوات على رحيلها، لتؤكد بذلك ان بعض المبدعين لا ينال منهم النسيان، وان الرحيل لا يقوى على إزاحتهم من واجهة المشهد الأدبي. وإذا كانت هذه الكاتبة قد أنجزت ما يزيد على الـ 80 كتابا، فان الكتب التي درست سيرتها الذاتية ومجمل مؤلفاتها، بلغت العشرات، منها على سبيل المثال لا الحصر: *على خطى مارغريت* دوراس للكاتب الآن فيكوندولاي، *ومكتب البريد في شارع دوبان* والعديد من المقابلات الاخرى، مارغريت دورا- فرانسوا ميتران. وشارع سان بونوا/الطابق الثالث إلى اليسار \مارغريت دوراس، ويحمل توقيع السينمائي البلجيكي جان مارك توين الذي كان صديقا لها منذ بداية السبعينات. وهناك أيضا كتاب *ولع دوراس* لجان فالييه، الذي أضاء فيه على سيرة دوراس الإنسانة والمبدعة، واعتبره النقاد من أفضل الكتب التي تناولت سيرتها بدقة.

الملفت للإنتباه في كل مناسبة تقام لدوراس هو استطلاعات الرأي التي أجرتها أكثر من مؤسسة متخصصة حول كتابات دورا بعد وفاتها، وهل لا تزال مقروءة ام لا؟ وجاءت الإحصائيات لتؤكد ان دوراس التي عملت في مجالات عدة، من المسرح إلى السينما إلى الكتابة الأدبية، لا يزال أدبها يعرف رواجا كبيرا، بل بالإمكان القول أنها لا تزال من بين الكتب الأكثر مبيعا. وبحسب مصادر دور النشر الأساسية غاليمار ومينوي، بيع من كتابها *الحياة الهادئة* الذي صدر في العام 1944 أربعة ملايين نسخة. ولا تزال كتبها التي صدرت في سلسلة كتب صغيرة

تبيع مئة ألف نسخة سنويا. من هذه الكتب *هيروشيما حبي* الذي صدر في العام 1972 وبيع منه ستمائة ألف نسخة، وكتابها *العاشق* الذي لا يزال يبيع سنويا ثمانية عشر ألف نسخة.

لا يمكن اعتبار دوراس امرأة عادية في زمنها، عاشت دائما مهووسة بمعاني الحياة والحب والكلام والصراع والانفعال، وان كل ما كتبته هذه المبدعة يعارض في الواقع عصرنا ويسير ضده. انها بهجة عندما يكون عصرنا حزينا، تفكر بجسدها عندما يقصي زمننا الجسد، تكتب"أنا" عندما يتفق الكل على قول "كل الناس"، تعلن عن رغبتها بالتمتع عندما يفرض عصرنا واجب الزهد، انها غاوية ووقحة عندما يمجد العصر الفضائل الكبرى، وهي المدمنة على الكحول في زمن التنسك والورع والإيمان. انها باختصار كاتبة بمزتج انساني بحت، متحررة بميولات فوضوية، ويحلو لها إخضاع الاقتصاد إلى مشروع متعة للحياة في المجتمع، ولـ "مبدأ ديونيسوس اله الخمر، وتحث أهل زمانها على الصعود من جديد إلى المتاريس لـ "اكمال (حركة) مايو (ايار) 1968، لكنها حتى في مبالغاتها تحكم على مجتمعاتنا التي تستغل الإنسان، وتحدثنا في مؤلفاتها صوت البؤس والبطالة والانحراف والفاقة ولا سيما الجسد المتألم.

حين كتبت *افتتان ن. شتاين* 1964 و*نائب القنصل* 1965 منذ حوالي 40 سنة لم تكن تعلم انها أسست نموذجا أدبيا جديدا خاصا بها، ومن أوائل المهتمين به المثقفون والجامعيون. لقد احدثا هذان الكتابان موجة صادمة لدى الكثيرين. وكانت النتيجة ان مارغريت دوراس اليوم هي الكاتبة المعاصرة الأكثر اهتماما في فرنسا، بعد ان تجاوز عدد الاطروحات الجامعية التي تناولتها المائة، في ميادين علمية مختلفة، منها الآداب الحديثة والتحليل النفسي والسينما... ألخ. يعزى هذا الإهتمام بكتابات دوراس إلى تضافر ثلاثة عوامل: أولا ظهور أدب دورا كأدب ثوري، اهتمامها بالمرأة لتحريرها، عن طريق تحليل كتابتها الأنثوية، وأخيرا انتماؤها إلى اليسار الذي اجتذب أكثر من طالب بعد العام 1968.

الجامعيون الذين اهتموا بالكاتبة حولوها إلى قديسة. هكذا امتدت ظاهرة دورا إلى أن وصلت إلى الولايات المتحدة، حيث بلغ عدد الاطروحات الجامعية التي تناولت أعمالها بالدراسة ما يزيد على المئة، وسوف يزداد هذا العدد أكثر إذا أضفنا

كندا. أما السبب الرئيسي لهذا الشيوع فهو الحركة النسوية. حيث أصبحت مارغريت دوراس موضوع نقاش في دوائر الدراسات الأنثوية منذ العام 1970، فضلا عن محاولة النساء باستمرار وبسرعة تحويلها إلى شخصية شعبية. وتقول إحداهن في هذا السياق: "كان ينبغي إخراج دوراس من الحرم الجامعية، لقد جبت الولايات المتحدة وألقيت أكثر من 20 محاضرة عنها خلال 10 سنوات. كما نشرت أيضا عددا ضخما من المقالات" في محاولات مستمرة لتقريبها من الناس. ويبدو ان هذه السياسة أعطت ثمارها بسرعة، ففي العام 1978 صدرت

رواية *العاشق* في نيويورك بغلاف مثير يحمل صورة دورا وهي شابة، واحتل الكتاب قائمة الكتب الأكثر مبيعا، وشهدنا على الأثر ولادة ظاهرة عالمية هي الهوس الدوراسي. وصلت مؤلفاتها إلى الصين وحتى إلى أكثر الأماكن انعزالا مثل سيبيريا، حيث اعترفت أخيرا أستاذة اللغة الفرنسية في مدينة اركوتسك بأنها وزملاءها وتلميذاتها شغوفات بمارغريت دوراس، ورغم ذلك تستدرك بالقول: "انتبهوا إلى عودة المتزمتين في أميركا الذين يغتاظون من نجاح دوراس". ونشر أخيرا مقال جميل قارن روايات مارغريت دوراس بتلك التي تباع في محطات القطارات.

مارغريت دونانيو، التي ولدت وعاشت المرحلة الأولى من حياتها في الهند الصينية، المفرطة في الفساد والاستغلال وأعمال القمع الوحشية المرعبة، ففي العام 1930، وكانت حينذاك تبلغ من العمر تسعة عشر سنة، كانت مفوضيات الشرطة والسجون، في سايغون وسائر المناطق، مكانا مخصصا للتعذيب الوحشي الذي تقشعر له الأبدان. وبعد تسعة سنوات وقعت مع صديق لها الكثير من الصور الوطنية الغريبة عن الإمبراطورية الفرنسية. وفي بداية الاحتلال الألماني لفرنسا، كانت تعيش في باريس وتعمل سكرتيرة للجنة الرقابة على الورق، في مؤسسة دائرة المكتبة، ومتزوجة من روبير انتيلم. كانت هي وزوجها من الجماعة ذات الوعي المفلس، التي كانت ترى ان هتلر لا يقهر والنازية قابلة للحياة والاستمرار، إلى ان هزم هتلر في ستالينغراد في شتاء العام 1942. انضما إلى المقاومة العام 1943 وتعرفا على فرنسوا ميتران الذي سوف يصبح رئيسا للجمهورية الفرنسية لاحقا.

في تلك المرحلة ولدت مارغريت دوراس، الاسم الذي عرفت بـه ككاتبة وأخذته تماما كما فعلت فرنسوا ساغان من إحدى روايات بروست[1]. ففي العام 1944، وافقت دار غاليمار على نشر روايتها *الحياة الهادئة* التي لاقت الاستحسان واستحقت لقب كاتبة من قبل الكاتب الكبير ريمون كينو. في تلك السنة أيضا انضمت إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، من دون ان تقرأ ماركس أو انغلز، ولم تكن تعرف شيئا عن الفكر الماركسي. كان موقفها ردا واندفاعة غضب ضد شقاء الناس، ويعتبر الكاتب فيليب سوللر أن شعورها بالذنب هو الذي دفعها إلى تأليف كتاب *هيروشيما حبي*.

لكن دوراس تحب الجدل المهمش فهي نيتشوية نشيطة، ذات شطحات ترى العالم قد أصبح لاعالما، فتربطه بمحبة الظهور كنوع من الاستعراضية، المستمرة في الماوراء، فهي تغوص في كل ما هو سلبي، محترفة لفن الكلام المثير والتصنع الدقيق. ان الغرض من الكتابة عند دوراس ليس شيئا آخر سوى الموت متخذا له قناع نهاية التاريخ. كان ينبغي ان يضحي احدهم بنفسه كي يحمل ندبات ذلك.. إذا كان الأمر محتوما، ان تكون امرأة، وهذه المرأة هي دورا، الوسيط الذي أتى ليخلط اللعبة في مجتمع أصبحت فيه وسائط الإعلام صاحبة القرار من الآن فصاعدا.

كان من المفترض كتابة هذه الحكاية التاريخية والأسطورية عن مؤلفة روايتي *حاجز مقابل الباسفيك*، *والحياة الهادئة*. وفي العمق، إذا حملناها محمل الجد، احتلت دوراس في نهاية القرن العشرين موقع هوغو في نهاية القرن التاسع عشر: *تبادل ادوار*، *رؤى تنبؤات الآخرة*. *هوغو يائس*، لكنه هوغو على اية حال، لا يهم حينذاك إذا همس شخص مثل اندريه جيد: "اكبر كاتب فرنسي اليوم؟ انها مارغريت دوراس، للأسف"! إذاً لا يصبح الكاتب معروفا بالصدفة. ليست دوراس هي التي تهذي بل المجتمع كله.

لقد احتلت مكانة متقدمة إلى جانب الآن روب غرييه وكلود سيمون ونتالي ساروت، ولم يعد بالإمكان الحديث عن حركة الرواية الجديدة من دون التوقف

---

1 Yann Andréa Steiner, Paris: P.O.L., 1992. p. 137

أمام اسم دوراس. ولاحقا سوف تكرس هذه النجومية بحصولها على جائزة غونكور عن روايتها *العاشق* التي حققت اكبر المبيعات في تاريخ هذه الجائزة، وليساهم الفيلم المقتبس عنها في إطلاق شهرتها نحو الآفاق العالمية.

2 - مخاض الكتابة وألم الوجود عند دوراس:

في رواية *العاشق* نحن أمام سيرة ذاتية للكاتبة، امرأة عجوز تعيش تجربة خاصة، هذا المشهد دفع الناقد الفرنسي بيير بيار إلى القول: "ان مارغريت دورا لم تحدثنا أبدا في رواياتها السابقة عن نفسها، ولا عن شيء منها وإنما اختارت ان تفعل ذلك وهي في سن السبعين. اما الناقد جان بيير اميت فيقول: "ان مارغريت دوراس لا تكتب الكتب، ولكنها تعيش في الكتاب مثلما يعيش الإنسان داخل شعائر دينه، كل فقرة من الرواية تحمل شحنة التجربة الوجودية".

إذا كان التقدم في السن هو الجواب الشافي عن اسئلتنا القلقة، فماذا عن الذين يشعرون بأنهم فقدوا عبق الشباب وهم في ريعان الصبا؟ بطلة مارغريت دوراس أحست بأنها شائخة وعجوز وهي في الثامنة عشرة من العمر."اختصرت الشباب على نحو مفاجئ وقبيح. راحت تحرث في الوجه وفي الروح، وتجعل النظرة أكثر حزنا".

في رواية *العاشق* ثمة خيط رفيع بين السيرة الذاتية وأحداث الرواية، وتجارب البطلة في الغالب، هي تجارب دوراس نفسها، تجارب فيها من الندم والحزن والفقد والأحلام المؤجلة، ما يجعلنا نتعرف إلى أعمق الآلام التي شهدتها هذه الكاتبة التي كانت مهووسة بالجمال وشغوفة في مقدار التأثير الذي تحدثه في الآخرين. هكذا وكما يفعل الكتاب غالبا، جعلت مارغريت دوراس حياتها مادة خاما لرواياتها. والأغرب ان أدبها استولى على حياتها إلى درجة ان شخصية خيالية تدعى مارغريت دوراس امتلكت زمام الأمور. ولئن كانت دوراس الحقيقية هي التي وضعت كتبها، فإنها هي أيضا عاشت بإفراط في عالم خيالي من صنعها، طبعا، ما لم تكن تتظاهر بذلك كله.

في كل الأحوال، رسمت إطارا للسؤال الوجودي الأساسي: من كانت مارغريت دوراس؟ وحاولت لور ادلر الكشف لهذا السؤال عندما بدأت بكتابة

أول سيرة لدوراس، صدرت في فرنسا بعد وفاتها في اذار (مارس) 1996 عن عمر ناهز الحادية والثمانين. و لم تكن دوراس ترى الجدوى من السؤال، فسيرتها كما قالت حاضرة فيها قبل ان تنعكس في رواياتها، ومن الممكن جدا أن هناك الكثير من الأشياء التي لم ترد في كتاباتها والتي قد نفهمها من خلال بعض التفاصيل الواردة.

أما فيما يخص السؤال الحساس المرتبط بالاحتلال الألماني لفرنسا إبان الحرب العالمية الثانية، صورت دوراس نفسها بطلة أكثر مما تقوله كتاباتها. فقد تذكرت الفترة التي أمضتها في المقاومة ونسيت عملها مع الألمان قبل ذلك. وكانت ذاكرتها تنتقي الأحداث أكثر من مناسبة واحدة. وفي أواخر حياتها، آمنت بأسطورة انها ابتدعت حياتها كما تشاء، فهي لم ترد ببساطة ان تتذكر أمورا معينة، وفي الواقع لم تعد تعرف هويتها الحقيقية. فكل شيء أبدعته في كتاباتها أصبح اصدق من الواقع التي عاشته فعلا خلال سبعة أعوام من البحث والكتابة، بات هم ادلر ان تميز الخيال من الحقائق، بل الحقيقة من الخيال. وقد أتيح لها لمدة عامين ان تستمع إلى دوراس وتستنطقها لوضع سيرتها.

وقد ذكرت ادلر في مقابلة فتقول: "اعتقدت أحيانا اني سأصاب بالجنون، فلو كنت اعلم ان الأمور ستكون بهذه الصعوبة، وإنها ستلاحقني ليل نهار، حتى في أحلامي، لما وطنت نفسي على المشروع، لكن ما إن بدأت حتى عجزت عن التوقف. كان علي ان اصل إلى مبتغاي، وهو ان أتحقق مما إذا كانت مارغريت دوراس موجودة حقا كامرأة ام كانت الأسطورة التي اخترعتها هي".

حتى ذلك الحين. وقبل ان تصبح دوراس مشهورة ومعروفة بفضل كتابها *العاشق* سنة 1982، لم تكن ادلر قد قرأت أيا من كتبها، إذ "كانت دوراس محبوبة جدا من عدد صغير جدا من المعجبين المخلصين الذين كانوا أشبه بطائفة. كان لدي انطباع دائم يقول انها كانت بعيدة جدا، ومعقدة جدا. ونرجسية جدا. لكن عندما قررت كتابة سيرة دوراس، أحست بأنها ملمة بموضوعها جيدا. غير انها ووجهت بأساليب متنوعة وعوالم مختلفة عندما بدأت بحثها بقراءة جميع مؤلفات دورا تباعا، وعبرت عن ذلك بعبارة "الكاتبات اللواتي كن مارغريت دوراس".

انتقلت ادلر إلى فيتنام، حيث ولدت دوراس، وحيث جرت وقائع مراهقتها الرومانسية مع رجل اكبر منها سنا وسردت هذه القصة في رواية *العاشق*. وهناك، التقت ادلر أشخاصا لم يكونوا يعرفون *العاشق* الذي لم يكن بالوسامة التي وصفتها فحسب، بل كانوا أيضا يعرفون دوراس وأمها وأخاها

الأكبر. وفي رحلتها هذه كونت صورة حزينة عن دورا المراهقة: "لقد عاشت طفولة بائسة، فقدت أباها وحب أمها، وجربت ألوان الاحتقار والازدراء والضرب المبرح من أمها وأخيها. ولا شيء من هذا يذكر في كتابها، لكنه من مفاتيح فهم أعمالها، لقد كتبت لتخفف من معاناتها تتخلص من الألم والكآبة اللذين عرفتهما.

لقد حاولت التحديق عميقا في نفسها وعملت على إنقاذ ذاتها من الذكريات المريرة بوضع الروايات التي تخاطب الجميع بأسلوبها، دورا التي كتبت أكثر من ثمانين كتابا بين رواية وقصة ومقالة، من أهم رواياتها *حاجز على الباسفيك* التي ذكرناها سابقا، في سنة 1950، *العاشق*، *هيروشيما حبي*، *خيول كاتينا الصغيرة*، *مرض الموت*، *الحديقة*... الخ. كذلك بذلت الكثير من وقتها في كتابة الأعمال المسرحية ومنها: *جسور السين وواز*.

مع دوراس نكتشف ان الأمر يتعلق في المجمل بصيرورة مدهشة، حديثة على الأرجح، من سوء التفاهم، وتتغذى كتابتها من حقيقة وجودية، اي من مقاطع من الحياة تغيرها الكاتبة وتصفيها لكي تصنع منها "التعبير الأصدق عن الآلام الأكثر شيوعا". تقول دورا: "ليس لدي أي إمكانية لأفهم بوضوح ما نسميه سيرة شخص. وحدها فكرة الموت تجمع قواي أو حب هذا الرجل وطفلي. عشت دائما كما لو أنني ليس لدي أي إمكانية لأتوافق مع أي نمط من الحياة". لكن دوراس هذه سوف تكتب لنا في خواتم أيامها رواية بعنوان "هذا كل شيء"، انها رواية ثمينة ومليئة بالاعترافات.

الرواية ليست سهلة أو بسيطة، رغم قلة عدد صفحاتها (55) التي يكثر فيها البياض. يتضمن الكتاب بعض الأسطر والعبارات الحزينة واليائسة، ويكاد يكون رسالة تشهد على الحب الذي تحمله الشابة العجوز إلى عشيقها الأخير وحبها الخالد، يان اندريا، الذي أدخلته إلى عائلتها الخيالية من خلال تكريسها له احد كتبها، وأعطته اسما جديدا هو يان اندريا شتاينر.

سبق ليان اندريا ان كتب وبمحاكاة أدبية مثيرة نصا على شرفها، حمل عنوانا موجزا: "م. د". وها هي مارغريت دورا ترد الجميل في كتابها *هذا كل شيء* وتلقي نظرة أخيرة في مرآة الأيام، أو كلمة وداع، لكن هذا الوداع لن يكون الأخير ومن دون دموع. بل على العكس، فرغم الشروحات الدلالية – البنيوية التي تعود إلى الخمسينات، يبدو من الواضح ان مارغريت دوراس تنتمي إلى جماعة الروائيين، أكثر من انتمائها إلى الأندية المميزة للطليعة المثقفة. *وهذا كل شيء* تقول لنا ان الأمر انتهى، العالم والحياة يتواريان في آن معا. ودورا حزينة جدا ولا ترغب بالموت. تقول: "انا حزينة لأن العقود تمر بسرعة، لكنني رغم ذلك، انا مع ذلك الجانب من العالم. انه أمر عسير جدا ان نموت في لحظة ما من الحياة ينتهي كل شيء". وتعلن دورا مثل صديقها القديم الرئيس ميتران، ان المرء لا يحتمل ببساطة الأمور المألوفة، لكن سواء أثارها هذا الأمر أم لا، لديها هذه النبرة التي نعجز عن وصفها. فهي وحدها على الأقل تحسن الكلام وتقول بلغة انتقاديه خبيثة مخاطبة الشخص العزيز الذي تهديه كتابها(يان) الا تشعر قليلا انك جوهرة معلقة في عنق دورا". مؤلفة *هذا كل شيء* غير متحفظة في كلامها، انها تفكر بالأسوأ، لان الأسوأ هو وجهها، تحديدا تقول: "اعتقد ان كل شيء انتهى، وان حياتي انتهت، أصبحت لا شيء، مخيفة ولا أتمالك نفسي. لم يعد لدي فم أو وجه". هذا الكلام العميق لن يؤجل لقاء دوراس بالأبدية. بل سوف تموت كسائر الناس، لكنها رغم هذا اليقين تبدو خالدة.

مارغريت دوراس روائية فرنسية ومخرجة سينمائية طليعية اشتهرت في الوسطين السينمائي والأدبي وقد رحلت الكاتبة قبل أكثر من عشر سنوات عن عمر يناهز (82) سنة بعد أن تركت خلفها روائع في الرواية والمسرح وانجزت افلاما هامة. ولدت دوراس في احدى المستعمرات الفرنسية في الهند الصينية عام 1914 من عائلة متوسطة من أب موظف وأم مدرسة، بدأت الكتابة في سن مبكرة وكتبت العديد من الروايات والنصوص الأدبية والمسرحيات وسيناريوهات الافلام، حاز بعضها على جوائز عالمية وحصلت مارغريت دورا على جائزة الغونكور الأدبية عن روايتها *العشيق* عام 1987.

أصدرت أول رواية لها تحت عنوان *السفهاء* عام 1943 وفي العام التالي اصدرت رواية *الحياة الهادئة*.. ومن مؤلفاتها *حاجز ضد الباسفيك* 1950، *بحار جبل*

طارق جياد تراكينا الصغيرة 1953 *أيام كاملة بين الاعشاب* ثم نص بعنوان *ثعبان البوا*، *الورشات*، *قطرة لاسين*، وكتبت مارغريت دوراس مسرحية بعنوان *واز* 1959 وسيناريو غياب طويل، وافتتان لولاف ستاين[1] 1959 وقد اكتسبت الكاتبة شهرة عالمية بعد كتابتها نص سيناريو فيلم *هيروشيما* حبيبتي عام 1958 والذي أخرجه للسينما المخرج الفرنسي المعروف آلان رينيه.

وقد تميز نص الفيلم بالشاعرية وعمق الافكار التي وردت فيه على لسان شخصياتها وكذلك بالتجديد في اللغة السينمائية المستخدمة وبخاصة اسلوب التداعي في الذكريات، وتداخل الماضي والحاضر، وقد نشر السيناريو على شكل كتاب بعد عرض الفيلم. والكتاب يمتاز بأسلوب جديد فيه العمق والكثافة الروائية وكذلك زمنه البطيء، المتخم بالذكريات والعودة إلى الماضي الحقيقي.

وهذا الاسلوب هو احدى السمات الرئيسة لمدرسة الرواية الجديدة التي تعتبر مارغريت دوراس احد اقطابها والتي دعا اليها ونظر اليها الكاتب الفرنسي الشهير آلان روبيه وتضم هذه المدرسة روائيين مثل جون كيرول وصاموئيل بيكيت وموريس بلانشو ورينيه لوتس وفورتيس وجون بير فاي وميشيل بوتور بالرغم من اختلافات عميقة وجوهرية بين هؤلاء الكتاب الكبار.

في عام 1943 اصدرت مارغريت دوراس روايتها الأولى *الوقحون* وفي العام نفسه انخرطت في حركة المقاومة الفرنسية وكانت في المجموعة نفسها التي يقودها فرانسوا ميتران الرئيس الفرنسي الراحل والذي صار صديقا مقربا لها فيما بعد. كتبت مارغريت دوراس العديد من الاعمال الادبية حتى نهاية حياتها وكانت رواية *العشيق* التي تحكي قصتها الحقيقية الحب الأخير الذي لم يغير مارغريت دوراس، بل سمح لاسطورتها ان تتعمق وان تصبح شخصياتها من لحم ودم. فالرجل الطويل الأنيق الذي يصغرها بسنوات كثيرة حط في منزلها كطائر غريب وجسد شخصية انديا سونج، هذا الشاب الذي هو اصغر من اولادها كان له دور كبير ونقلة نوعية في حياتها.. فقد منحها الشباب والقوة والاحساس بالشباب والحب والقوة.

---

1 C'est tout. Paris: P.O.L., 1999. p. 63

وقد كتبت مارغريت دوراس رواية "العشيق" لتحكي عن هذا الرجل الـــذي تصفه بأنه رجل شديد الموهبة والذكاء... إنها تكبره بكثير.. وقد أحبـــت دوراس ليان وكان عمره 27 سنة وكان طالبا في مدينة كون في قسم الفلسفة، انبهرت به قبل ان تراه وهي في سن السبعين. احبته من رسائله التي كان يرسلها بانتظام على مدى خمس سنوات وقد احدث ليان عاصفة في حياتها العاطفية، ومعه اكتشـــفت السعادة والحب الحقيقي وكتبت أجمل اعمالها التي وصـــل توزيعهـــا الي مليـــونين ونصف نسخة وترجمت إلى 42 لغة اضافة إلى نيلها جائزة كونكور الفرنسية.

رواية *العشيق* كتبتها في ثلاثة أشهر وهي من نوع الروايات التي تشد القارئ وتسحره، فهي تحكي قصتها الحقيقية مع هذا الرجل الصيني، والتي وصفتها دوراس "حكايتي مع يان هي نوع من انواع الموسيقا الناعمة الـــتي لا تختـــرق الجـــدران ولاتصل الا لشغاف القلب، خمس سنوات وهو عاشق لي وسعيد ولا يخفي ذلك، حتى انه وصفني بالوحش المقدس، فدائما الوحوش تعـــيش بمعـــزل عـــن النـــاس والمجتمع.. وقد كنت بالفعل أحب أن أكون وحدي"، هذه الحقبة العاطفية في حياة دوراس العاطفية وهي تقترب من سن الثمانين هي افضل مرحلة عاشتها الكاتبة في عمرها، فلا أحد يصدق الشاب الأنيق الطويل يصطحب المرأة الصغيرة الحجم إلى كل المطاعم الراقية وأمام الانظار والمجتمع ويفخر بانه حبيب هذه الكاتبة المبدعـــة التي لا تستطيع ان تخفي مشاعرها أمام الفضوليين والمعجبين. فهي تتحـــدث معـــه بهمس، تناقشه في الفلسفة والادب، تتأمل معه الطبيعة والبحر من على شرفة قصر مارسيل بروست صديقها القديم، يتسكعان على شاطئ ترفيل متأبطـــة ذراعـــه أو تلامس يده بحنان وشغف وهي ترتشف معه فنجان القهوة في لحظة استراحة، تقول مارغريت: "رغم ان وجهي فيه تجاعيد عميقة وجافة إلا أنني أشعر ان في داخلـــي فتاة شابة في العشرين من عمرها.

أصدرت مارغريت منذ عام 1961 عدة اعمال أدبية وروائية فقـــد عرفـــت الكاتبة الفرنسية المبدعة بكثرة انتاجها الادبـــي فمن مسرحياتها *المياه والغابـــات*، *الساحة العمومية*، *نائب القنصل*، *العشيقة الانجليزية* وصدرت لها رواية 1957 *قالت لي حطمه*، *الشمس صفراء* 1971، *أغنية الهنـــد* 1973، *الســـفينة المســـائية* 1978 *الايدي السلبية* 1979 *واورلينا ستينر* 1979، *رجـــل جـــالس في الـــرواق* 1980،

اغاتا 1981 الرجل الاطلسي 1982 *العشيق* 1984، *الا لم* 1985، *الساحة العمومية* 1955، *موديراتو كانتابيل* 1958، *العيون الزرق والشعر الأسود* 1986، *اميلي* 1987، للمكان تأثر كبير في ادب مارغريت دوراس فهي تقول: «في المكان انطلق احيانا في كتابة رواية أونص أدبي أو مذكرات أو سيناريو فيلم، ولأماكن الطفولة وقع خاص علي، وهي ما زالت تسحرني، *نهر الغانج* مثلا له دور كبير في تكويني أو تجربتي، كذلك الأماكن التي ارتادها يوميا أو التي اعيش بها، مثل بيتي في باريس وبيتي في نوفل لاشاتو ومدينة تروفيل، فهذه المدينة اذهب اليها كل عام وأقضي فيها ما لا يقل عن اربعة اشهر سنويا وعندما ابتعد عنها اشعر كأني فقدت الضوء، ليس فقط ضوء الشمس، بل ضوء السماء الغائمة الرمادية. أكثر من عشر سنوات مضت على الكاتبة الفرنسية مارغريت دوراس، تركت خلفها موروثا هاما في المسرح والرواية والسينما وكانت حياتها مغامرة متواصلة منذ البداية حتى النهاية.. وهي أكثر الكتاب الفرنسيين غزارة في الانتاج وفي تقديم ادب وثقافة تعتبر من روائع الادب العالمي والانساني.

هامش الكتابة في أدب دوراس:

في أزمنة الحروب، يصبح الموت قريبا ومتوقعاً في كل لحظة، وتخف صدمته عن حدوثه في زمن السلم. وقد ارتبطت دوماً حالة الحرب وما تسببه من خراب إنساني ومادي، من موت وأذى، ارتبطت ببعض العدمية، أو اللاجدوى. لهذا فإن الروايات التي تُكتب عن الحرب، أو في وقت الحرب، لا بد وأن تحمل هروباً ما من الحياة، إلى حتمية الموت، عبر الحلم، وعبر تصعيد الرغبة في البقاء والعيش. من هنا، فإننا نكاد نجزم أنه بموت مارغريت دوراس، الطبيعي، وموت ساندرا بسبب أحداث الحرب، ثمة هروب خفيّ من مواجهة خوف الفقدان، الذي تسببه الحرب. تخلق الحرب حالة من العدمية وضياع المعنى، وهذا ما يحصل في أغنية لمارغريت، إذ تتقطّع كل سبل التواصل مع العالم الجمالي، ومع الأمل، بالنسبة لزينب، حين تموت "مارغريت" في الرواية التي تكتبها، وحين تموت ساندرا، صديقتها الوحيدة، التي اتسمت دوما بالحيوية والأحلام، ولا يبقى أمامها سوى والدتها التي تفكر فيها باستمرار، وهي على خلاف مستمر معها.

عبر نفس الأفكار التي توحي بشخصية المرأة أكثر من الرجل، إذ تميل الكاتبة إلى طرح حالات من الهدوء النفسي الظاهري، يقابله اشتعال داخلي، عبر بعض العفة التي توحي بها، والمثالية الأخلاقية، كالبحث عن التسامح، الغفران، وثمة إنكار للذات. ثمة مخاطرة ناعمة، رقيقة، غير صاخبة، تتقاطع مع جملتها في الصفحة 74 من الرواية: "شغفها كان وليد لذة الاستمتاع بالخطر"، انكفاء الأنثى الكبريائي، إن صحّ الوصف، حيث انكفاء زينب يحرّضني شخصيا على محاورة الكاتبة، لاكتشاف مدى التماهي بينها وبين بطلتها، إذ تميل زينب لعدم التعبير عن نفسها، تحب التأمل أكثر مما تطرح ذاتها. ألهذا تختاردوراس الانكفاء في كتابة الرسائل ليان أندريا، والدخول في الماضي، لعدم عيش الراهن الثقيل، الغامض، المجهول؟ ربما!

أتحدث عن التماهي، لأن الكاتبة ذاتها، ليست من الأشخاص الذين يبحثون عن أمكنتهم. ثمة روح غامضة لدوراس، تتقاطع مع روح ليان، الفارّة عبر الحلم الرومانسي البعيد المنال، وكأنها وجدت في حكاية الحب بين يان أندريا الشاب، ومارغريت التي دخلت تلك العلاقة في سن متأخرة، بعض التعويض الروحي عن زمن القسوة الحالية. وكأنها، وهي تطرح مخاوفها من الموت، الذي تجعله الحرب بديهية ممكنة الوقوع في اي لحظة، فهي تلجأ إلى التماهي مع يان أندريا الرجل الذي أحب بإخلاص، لتؤمن ببعض الخلاص. إنها تكتب لمارغريت ثم تكتب للقارئ، إنها تقولها بكل قوة.

من المهم أن نذكر أن دوراس كانت قد كتبت بعض فصول رواياتها في ورشات المسابقات والجوائز العالمية للرواية، كل مكان هو جغرافية جديدة للنص، وتستمر التجربة الكتابية هكذا، لتوفير أجواء بعيدة عن روتين الحياة اليومية، للتفرغ للكتابة وتبادل الخبرات بين المشاركين والمشرفين على الورشة، ويظهر هذا التنقل والإرتباط المكانيين في مسرحياتها، إذ هذه هي بعض الأسئلة التي تثيرها قراءة مارغريت دوراس في كتابها الكتابة، فإنَّ الباعث على هذه الأسئلة هو ما تثيره، هي نفسها في الكتابة، ومن خلالها، من إحساس لدى قارئها بأنَّ الكتابة أو ما تكتبه هي، تحديدا، يمثّل تجربة من الحياة، لا تكتمل لأنها مستمرة في الكتابة، تحيا بها حياتها الخاصة، مفصحة عنها بنزعة اعترافية، فإنَّ ما قد يدفع بقارئها إلى الإمتزاج بها، هو ما تثيره عنده، من إحساس بأنَّها منخرطة في إيقاعات هذا الذي

تكتبه، فهي تبوح في كتابها هذا المكتوب بلغة بالغة الحميمية بين الذات والحياة، بمعناها الشامل، والأشياء بوجودها الذي يعني الإنسان، أو يخصّه، تشيع نزهة التماهي، وتجسَّد وعياً هو في الصميم من هذا كلّه، وعي يحوّل نزعات الإنسان ورغباته إلى ما يمكن أن نسميه: اعترافات تحليلية[1] confessions بل قل يحوّلها إلى تأملات، ؛ وميولات عشق، مشكلاً الوعي بالكتابة، نفسها من خلال الوعي بتجربة الحياة، أو من خلال وعي الحياة، بما هو وعي بالزمان والمكان معاً. الزمان لإطلاق الرؤيا وانطلاقها، تلك الرؤيا التي غالباً ما تُلقي بظلالها على الأرض، والمكان بوصفه مولدا ومعاداً، يُتيح لنا أن نرى الأشياء من خلاله، في ما يمكن أن نسميه وجوداً متجددا.

والكتابة تحتاج إلى الحياة، فهي تحتاج الوحدة على نحو أكبر، وأكثف، والوحدة، يبدعها الكاتب بنفسه لنفسه، ولا أحد سواه، أما الحياة فهي، في كثير من الأحيان، موجودة دون إرادة منَّا، نحن الذين تُحيطنا الحياة، وكثيراً ما نحتضنها، أو نُقبل عليها بغبطة. والكاتب يستوعب وحدته في كتابته، ومن خلالها: "لقد استوعبتُ كوني وحيدة مع كتابتي، وحيدة، بعيدة جداً عن كل شيء"، هذا ماتقوله مارغريت دوراس. وفي هذه الوحدة solitude، ومن خلالها، يتسرب الزمن الكلي والتام. ولكن الكاتب يتحسّس وجوده في المكان، ويتلقى تأثيرات المكان عليه، واستجابة مكانه الشخصي، لإرادة وحدته. فالوحدة إرادة، أما الكتابة فهي، كما الحياة استجابة، وللمكان أثره/تأثيره في إحداث هذه الاستجابة ذاتاً، وفي تحققّها إبداعاً.

والوحدة والكتابة شيء واحد، تقول مارغريت دوراس: "احتفظتُ بالوحدة الخاصة بالكتب الأولى، حملتها معي، كتابتي دائماً أحملها معي أينما ذهبتُ وإنَّ العزلة المتعلَّقة بالكتابة هي عزلة بدونها لا يُنتج المكتوب، أو أنَّه يتفتّت شاردا في البحث عمَّا يُكتب إنّها العزلة l'isolement، عزلة الكتابة". من أجل الشروع بالشيء يتساءل المرء عن هذا الصمت الذي يحيطه، وبالفعل، مع كل خطوة نتخذها في بيت. وفي كل ساعات النهار، وفي كل الأضواء، آتية من الخارج أم كانت من الأضواء والأنوار خلال اليوم، تصير العزلة الحقيقية للجسد حصنا، هي

1 Adler, Laure, Marguerite Duras. Paris: Gallimard, 1998. p. 627

نفسها الوحدة والكتابة، كل ما يُكتب يتخذ شكل العزلة في الوجود فالإنسان كما ترى مارغريت دوراس لا يبحث عن العزلة، إنما يبدعها عالما آخرا، فـــ "العزلـــة توجد في مكان ما، أنا أراها، ألتقي بها، فأنا صممت على أن أكون وحـــدي، أن أبقى في العزلة للبقاء في الكتابة".

ولكن العزلة قد تكون مصدراً للخوف، فحين يشعر الإنسان في لحظة بأنـــه قبض على الحاضر، يأتيه ما يعصف به ليرجعه إلى الوحدة، المكوث في مكان مـــا، والشعور بالخوف. إلاّ أنه قد يضخم هذا الخوف بالكتابة، ليصبح جزءاً منها، وفي أُلفة معها. وهنا، وبامتزاج هذا هذا، الشعور مع مشاعر وإحساسات أُخرى بتجربة الحياة، "لا شيء غير الكتابة يكون له معنى"، وتضيف: مارغريت دوراس: "وبمـــا أنني أطوّعها فأنا أُمارسها"[1].

و"الوحدة" أيضاً تعني: الموت أو الكتابة، بل تجد مارغريت دوراس في الكتابة انتصاراً على الموت، وقهراً له: "لم أؤلّف كتاباً لا يكون تأليفه سبباً لوجـــودي". ولكن، إذا كان الموت هو الصمت الدائم، فإنَّ الكتابة في حاجة إلى الصمت أيضاً. إنَّ الكلام في ما سنكتبه يحرف ما نريد كتابته. وهكذا فإن الكتابة تفـــرض علينـــا الصمت في الخارج، ولكن ما في الباطن الذي تلده الكتابـــة، والكاتـــب تقـــول مارغريت دوراس: "كم هو مدهش الكاتب، إنَّه التناقض واللامعـــنى في الوقـــت نفسه". وحدته موجودة في كل مكان في الكتاب الذي يكتبه"، إنها وحدة العـــالم أجمع وقد استحوذت على كل شيء، العزلة والوحدة هي ذلك الشيء الذي بدونه لا نصنع شيئاً ولا نرى شيئاً".

هل الوحدة في صورتها الوجودية، تمثّل نمط عيش أو طريقة للتفكير؟ "إنّهـــا طريقة في التفكير وإقامة العلل، عبر التفكير اليومي وحده. هكذا تقول مارغريـــت دوراس ولكن"ستُصبح الوحدة عادية، ثم نألفها علـــى المـــدى البعيـــد"[2]. تـــرى مارغريت دوراس في هذا أمراً مبهجا. أما الموت، فهي في الأشياء كما في الـــروح، إنه ما يمنح الأشياء السكون. وأما مداخله فكثيرة، فقد يأتي عن طريق اللهو، كمـــا

---

1 Blot-Labarrère, Christiane Marguerite Duras. Paris: Seuil, 1992. p. 315.

2 Bogaert, Sophie Dossier de presse: le Ravissement de Lol V. Stein et le Vice-consul de Marguerite Duras: 1964-1966. Paris

حصل للطيار الإنكليزي الشاب ابن العشرين، الذي أغار بطائرته في آخر يوم من أيام الحرب العالمية الثانية، على سرية معادية، فأسقطته وطيارته واحتفت القرية التي سقط على أرضها به ميّتاً فدفنوه. استسلم لوحدة للقبر. حتى أتى عجوز إنكليزي بعد حوالي عام، ونعاه قال إنه معلمه، وهو تلميذه، وأنه كان يتيماً، إنها عزلة أُخرى. واستمرّت زيارة العجوز الإنكليزي لقبر الفتى، حتى إذا بلغت عزلته ثمانية أعوام، وبلغ العجوز الإنكليزي مثلها في البكاء عليه، توقف، ولم يعد يأتي، توقف فجأة عن المجيء. تراه قد مات؟ تتساءل "مارغريت دوراس"، فتقول: "بلاشك وكما توقف دم الطفل وعيناه وبسمته وابتلعها فم الموت الشاحب، يمكن للقصة أن تتوقف."

فإذا كان ايان يعبر عن عالم ما، فإنه يصور لنا العالم في عزلته، كل العالم في الوحدة، كان "هو ولكنه مات"، وسيبقى شابا، فتي التجربة على دوام الزمن، موت أي إنسان هو النهاية الغامضة، ولكن، عندما يموت إنسان يموت العالم بأكمله، وخاصة عندما يمثّل الموت صورة آلية لطفولة كانت تتشكل، يعرفون ذلك في كل الأمكنة. كما علّمني ذلك المزارعون عن طريق رؤيتهم لوحشية الحدث، مقتل طفل في العشرين، إثر حرب كان لا يدري بها"[1].

ومنظور الإلهاء يهيمن على الكتابة، لأنَّه يورطنا في الخيال المأساوي، وما يعطي للقصة رونقها هي فتوة الطفل، فكرة اللعب بالحرب فكرة مثيرة وجذابة. أما القبر بما هو مكان الخلاص للفتى ابن العشرين، فوحيد هو الآخر... وكما هو وحيد في قبره فإن قبره وحيد أيضاً في المكان، هناك وحدة متلازمة، وهناك، أيضاً، جريمة الأشجار المقتولة والمحروقة. لم تعد هناك حرب، بل طفل طفل حرب حلَّ محلَّ كل شيء، الغابة، الأرض، ومصير الحروب.

فديمومة الحياة هي فسحة الوجود والحركة، ومحال الرؤى والأحلام والآمال الصغيرة، والموت الذي يتغلغل في الأشياء، والذي لا تراه دوراس إلاَّ في صورة الحرب/القتل، حيث الدمار للإنسان والروح والوجود وزهوه. وحيث يقف هذا

---

1 Métissage fantasmatique Bouthors-Paillart, Catherine Duras la métisse: et linguistique dans l'oeuvre de Marguerite Duras. Genève: Droz, 2002. p. 246

الإنسان يعبر عن وجوده هذا بصورة أخرى، يحملها معه حيث يذهب هو إلى فراغ العدم. والبهجة التي لا نعيشها إلاَّ في الكتابة، مع الكلمة وكل ما ينتمي إلى عالم الكلمة، في ما نعبَّر به عن الأشياء، وفي ما نحمله من هذه الأشياء في ذواتنا، لنمضي به في رحلة هنا، وأُخرى هناك، في وجودنا. والشفاء الذي يرتبط بالسعادة أحياناً، ويُعبّر عن سفرنا في الوجود/ومع الوجود أحياناً أُخرى، ويرمينا في مركز الأشياء، فنتألم، ونتذوَّق مرارتها التي تدفع بنا إلى الهمّ والفراغ والغم والعدم.

ما إن ننطلق في الكتابة حتى نرى أبواب الأمل مشروعة، لنستمر وننهض من جديد! إنَّها صور متتابعة ومتلاحقة، وإذا كانت هذه الصور ستبقى متماسكة ومتقاربة، بحيث لا تنفصل الواحدة عن الأخرى حسب دوراس فإن تلك الصور هي الكلمات، كذلك، الأفكار هي الأخرى تجتمع داخل نسيج واحد، أو قرينتها، والكلمات لا تنفك تؤسس رؤى وصيغ ضمن سياق شبيه بالوجود، ويقوم بعضه على بعض مثل أليات البناء، وكأنَّ الحياة اجتماع الكل بالكل من أجل الكتابة.

و"مع تتالي الصور، الواحدة تلو أُخرى يصبح المعنى ظاهرا"[1]، والرؤى المتشكلة خارج الكلمات هي في حد ذاتها رسم لغوي، وولادة الصور مثل ولادة النص، أو تجربة الكتابة: "لوحات تولد من رحم يد واحدة ولشخص واحد، في فترة واحدة من حياته، ولهذا يريد أن يجعلها معاً"[2]. واللوحات شأنها شأن الأفكار أيضاً، ولذلك "لا يجب أن تبدو الألواح كلوحة واحدة"[3] أبداً، لكن أن تُوضع الواحدة إلى جانب الأُخرى، وهي متقاربة ومنتظمة، فهو المسؤول عنها، والمدرك لقيمتها، والأفكار لا تعدو أن تكون شيء آخر غير هذا؟ هل أرادت دوراس أن تقول للقارئ بأنها القارئ الأول، أن تقول: أنَّ أغلب التجارب الحياتية فيها من

---

1 Burgelin, Claude, Lire Duras: écriture, théâtre, cinéma.. Colloque Lyon II, 13-15 novembre 1997. Lyon: Presses universitaires de Lyon, 2001. p. 622.

2 Marguerite Duras: une expérience intérieure: «le gommage de l'être en faveur du tout». Berne: Peter Lang, 1995. 160 p. (Francophone cultures and littératures

3 Cassirame, Brigitte, Marguerite Duras, les lieux du ravissement: le cycle romanesque asiatique: représentation de l'espace. Paris: L'Harmattan, 2004. p. 312. (Critiques littéraires)

التشابه الشيء الكبير، بداية من الولادة والمعاناة والسعادة، وصولا إلى الموت والنهاية.

وإنَّ الكتابة عنها/وفيها "وحدة" تستدعي"العزلة"، وتحتاج إلى المسافة الطويلة، وإلى الإنفصال بين الحياة والكلمة/التعبير والوجود؟ وأنَّ الأشياء تسكننا في كل المواقف والإحساسات، من خلال الكلمات، فكل العالم من صنع الكلمات المتتالية، وأنَّ كل شيء في الحياة قائم على اللغة. ونحن في مسيس إليها لفهم الوجود والتجربة الوجودية، حتى الكلام عن الموت يحتاج إلى اللغة، لكي يصبح مقهوما، فيضيء هو الآخر كما يضيء نور الحياة غموض الموت. فالكتابة باعتبارها حركة الحياة وقلب الوجود النابض، هي الخلاص من الألم، فإذا كان الضوء يشع من الشمس، فإنّ اللغة تتغذى من الفكر، والكتابة هي التأبيد للحظة ولادة الأفكار، فكل الأفكار تجمعها اللغة، وحتى اللامكتوب هو قابع في هيولى الأفكار، وإن كانت كتابة الأدب هي محنة كل كاتب وقارئ، مشكلة الكتابة، ومحل النظر من الوجود لكل واحد منا، وتبقى الكتابة هي المعادل الرمزي للتجربة الوجودية، لا وجود بلا كتابة، ولا كتابة بلا تجربة وجودية.